الفصل الثاني
"المشكلة الإثنولوجية وجرأة الحل عند ليفي ستروس"

ويشمل :

(1) الاتجاه التاريخي المقارن.

(2) الاتجاه الوظيفي.

(3) ليفي ستروس وعلومه الأثيرة الثلاثة (الجيولوجيا والماركسية والتحليل النفسي).

(4) علم اللغة.

المشكلة الاثنولوجية وجرأة الحل عند ليفي ستروس

إن الدراسة في الحقل الاجتماعي تتطلب ملاحظة مستمرة ودقيقة للمؤسسات الاجتماعية ونظم الأخلاق والمعتقدات والفنون التقنية لمجتمع معين. وهذا هو دور الاثنوجرافيا باعتبارها علم وصفي. أما الاثنولوجيا فإنها تمثل خطوة نحو التركيب Synthese. ولكن كيف يكون هذا التركيب؟ إن مشكلة الإثنولوجيا تنحصر في هذه النقطة. وإذا كانت الظاهرة الاجتماعية الملاحظة، أيًا كانت، يستطيع الإثنوجرافي أن يعطي لها وصفاً مفصلاً، وأن يحلل علاقتها بالأخلاق والمعتقدات والنظام الاجتماعي للشعب المدروس، فإن الإثنولوجي، ابتداء من هذه المعطيات يلاحظ أن هذه الظاهرة الاجتماعية تحكمها قوانين عديدة.

وإذا كان البحث العلمي يهدف إلى رد هذه الكثرة العددية إلى الوحدة فما العمل إذن؟

لقد ظهر اتجاهان للحل خارج فرنسا هما: الاتجاه التاريخي المقارن، والاتجاه الوظيفي.

الاتجاه التاريخي المقارن:

ساد هذا الاتجاه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عند أمثال تايلور Tylor (1832- 1917) الإنجليزي وفرانزبوس Franz Boas الأمريكي (1858- 1942). ويقرر هذا الاتجاه أن الحضارة الغربية هي التعبير الأكثر تقدما لتطور الجماعات الإنسانية، أما الجماعات البدائية فهي تمثل مراحل سابقة للتطور[1]. ولذا فهو يبحث عن العنصر البدائي ثم

(1) LEVI-STRAUSS Claude, "Anthropologie Structurale", Plon, 1958, p. 6.

يكون قانون تتبعي للتطور Une Loi génétique d'évolution، أي أنه يصنف مراحل التطور لكي يفهم نظام تتابع النظم الاجتماعية.

والمشكلة هنا أن تحدد محك أو معيار التطور الذي يجب أن نتمسك به. أهي درجة التنشئة الاجتماعية le degree de socialisation، أو حالة الفن التقني L'état des techniques، أو كمية الطاقة المتوفرة في كل مجتمع ونسبتها إلى عدد أفراد هذا المجتمع .. إلخ. أن البحث عن هذه المعايير يجعلنا أمام عدد لا محدود من القوائم المتغايرة[1] فضلاً عن أن التاريخ ينقصه المعطيات. والقول بأن ثقافة ما يمكن أن ترد إلى مرحلة من مراحل تطور ثقافة أخرى هو مجرد افتراض لا يمكن التدليل على صدقه، كما أنه مزج للتاريخ بفلسفة للتاريخ لا تصمد أمام النقد، فضلاً عن أنه إغفال لفردية وذاتية الثقافات.

وعن سبب الاتجاه نحو التفسير التاريخي يقول ليفي ستروس[2] "إن تعدد الصور الاجتماعية منتشرة في المكان على نحو ما يراه الاثنولوجي، يجعلها تظهر وكأنها نسق غير متصل الحلقات. لذا، فقد ظن أنه بفضل البعد الزمني (أي عامل الزمن) يمكن للتاريخ أن يضمن عدم انفصال هذه الحلقات، كما أنه يضمن الانتقال من حلقة لأخرى بطريقة متصلة". ويلاحظ ليفي ستروس أيضًا أن هذا التفسير يرتكب خطأ منهجيا. إذ أنه ابتداء من تشابه بين بعض عناصر الثقافات المختلفة يستنتج تطابقًا بين هذه الثقافات ككل. ولهذا فهو علاوة على اشتماله على خطأ منطقي، فإنه مع ذلك تكذبه الوقائع[3].

---

(1) Ibid., p. 6.
(2) LEVI-STRAUSS Claude, "La pensée Sauvage" Plon, 1962, p. 339.
(3) LEVI-STRAUSS Claude, "Race et Histoire", Unesco, Paris, 1952, p.252.

وعلى سبيل المثال فقد أمكن لهذا الاتجاه – بالتجريد – أن يعزل بعض عناصر ثقافية مختلفة ليرى فيها علاقات تقارب أو تغاير مطرد تماما كما يفعل عالم الحفريات فيما يختص بتطور الأنواع الحية. فتايلور Tylor يعتبر القوس والسهم والفأس أجناسا (كان السهم على هيئة كذا في ثقافة معينة ثم تطور إلى كذا في ثقافة متقدمة إلخ.).

ويرد ليفي ستروس[1] بأنه إذا صح الاتجاه التاريخي فيما يختص بعلاقة التكاثر البيولوجية لأن الحصان يلد حصانا مثلا، فإنه على العكس نجد أن الفأس لا يلد فأسا. إذ التشابه بين أداتين أو تقاربهما الشديد يخفي دائما وجود عدم الاتصال بينهما رغم أن عدم الاتصال موجود أصلاً لأن الأداة لا يمكن أن يتولد عنها أداة أخرى، فكلاهما يتولد عن نسق من التمثلات Un système de representations. هكذا كان استعمال الشوكة للأكل في أوربا، واستعمالها في بولينيزيا لنفس الغرض في وجبات خاصة بطقوس معينة.

أما المدرسة الانتشارية l'école diffusionniste فإنها هي الأخرى تتبع طريقة المقارنة والتاريخ. وإذا أخذنا مثال الفن الذي يبتدعه نساء الـ Caduevo في البرازيل بالرسم على أجسادهن، فإننا نجسد تشابها كبيرا بين هذا الفن وغيره في مجتمعات أخرى في الصين القديمة والـ Maori في زيلانده الجديدة، وبدائي ما قبل التاريخ في بعض مناطق سيبيريا. كيف يمكن تفسير هذا التشابه بين ثقافات تتباعد في الزمان والمكان؟ إن أسهل التفسيرات هو افتراض انتشار هذا الفن عن طريق الاتصال واستعارة

(1) LEVI-STRAUSS, "Anthropologie Structurale", p. 7.

عناصر الثقافة، ثم محاولة إثبات حدوث هذا الاتصال عن طريق التاريخ. غير أن التاريخ يظل افتراضيا وإيديولوجيا[1] وإذا سئل فإنه يجب بالنفي[2].

ويستطرد ليفي ستروس:

"إن ما يجعل هذه الدراسات مخيبة للآمال، أنها لا تشير إلى دور العمليات الشعورية واللاشعورية، والتي تترجم إلى تجارب واقعية فردية أو جماعية وتؤدي إلى اكتساب نظم اجتماعية معينة إما عن طريق الاختراع أو بوحي من نظم سابقة أو عن طريق استعارتها من الخارج. إن هذا البحث يبدو لنا من أهم أهداف الإثنوجرافي والمؤرخ"[3].

وقد حاول فرانزبوس أن يضع شروطًا ضرورية لمشروعية الأبحاث التاريخية، منها أن تكون قاصرة على منطقة صغيرة ذات حدود معروفة، ألا تمتد المقارنة إلى خارج المساحة المختارة كموضوع للدراسة[4]. ولكن حيث أنه يقرر أن التاريخ يجب أن يفسر كيف تطورت الأشياء إلى ما هي عليه "فإن الباحث سيواجه بعدم إمكانية إعادة تركيب الأحداث التاريخية للمجتمعات التي يدرسها"[5]. وعندئذ "سترد الإثنولوجيا إلى مجرد تاريخ غير جدير باسمه، وذلك بسبب غياب الوثائق المكتوبة أو العينية"[6].

وأمام فشل الاتجاه التاريخي كان لابد من اللجوء إلى طرق أخرى للتفسير. وظهر الاتجاه الوظيفي. وهو اتجاه وصفي لا ينظر إلى مجتمع بدائي معين على أنه يمثل مرحلة على طريق التطور وإنما ككل متكامل

---

(1) Ibid., p. 8.
(2) Ibid., p. 273.
(3) Ibid., p. 9.
(4) Ibid., p. 10.
(5) Ibid., p. 12.
(6) Ibid., p. 15.

يشمل مجموعة وظائف دينية واقتصادية وأسرية تجتمع كلها في تنظيم هو بمثابة نسق المجتمع ذاته.

وارتبط الاتجاه الوظيفي بأسماء مالينوسكي (1884- 1942) وراد كليف براون (1881- 1955)، وكانا يرفضان اللجوء للتاريخ، وكرسا جهودهما للتحليل الآني l'analyse synchronique لعناصر الثقافة المختلفة في مجتمع معين وفي الزمن الحاضر (عادات، معتقدات، مؤسسات، تكنولوجيا) وذلك للبحث عن وظائفها في الحياة الاجتماعية للشعب المدروس وهنا يمتنع التركيب الاثنولوجي[1].

La synthese ethnologique deviant impossible

فمن مجتمع لآخر، ننتقل من نسق ثقافي لآخر، ومن نمط للقرابة ننتقل إلى نمط آخر مختلف دون أن نتمكن من اكتشاف مبدأ مفسر يسمح لنا بفهم هذا الاختلاف أو التشابه. وراد كليف براون تتمركز أبحاثه حول فكرة أن الوظائف الاجتماعية تنتج عن حاجات بيولوجية فردية وجماعية ويطلق عليها بعد ذلك في المجتمع لفظ مؤسسات institutions[2]. المجتمعات إذن هي كائنات بيولوجية أولاً وقبل كل شيء، أو على الأقل فإن تشابها حقيقيا وذا دلالة يوجد بين البناء العضوي والبناء الاجتماعي[3]. وعلى الباحث أن يدرس عناصر البناء الاجتماعي بقصد الكشف عن تفاعلاتها الداخلية التي تكون نسقا، ثم يستنتج القوانين الوظيفية لمجتمع أو مجتمعات معينة ينتقل منها بعد ذلك إلى تعميمات عن طبيعة المجتمعات

(1) MILLET Louis, Le Structuralisme "Psychothèque", (Editions Universitaire 1970). P. 53.
(2) Grand Larousse Encyclopédique. "Supplément" de A a Z 1968. (Voir Structuralisme), P. 814.
(3) "On social structure", Journal of the Royal Anthropology Institute, 1940, Vol. 70, p. 6.

الإنسانية مع ملاحظة أن هذه التعميمات قد استقرئت ابتداء من حالات فردية، وهي تستند في غياب معطيات المقارنة على افتراض طبيعة إنسانية واحدة وعامة.

يرى ليفي ستروس أن قصور هذا الاتجاه يرجع إلى عدم الاتصال la discontinuité. فالتاريخ مستبعد، وأيضًا المقارنة، والباحث هنا لا يرتقي دوره عن دور الإثنوجرافي[1]. وحيث أن الاتجاه الوظيفي يرى تماثلاً بين البناء الاجتماعي والبناء العضوي، لذا فهو مفهوم طبيعي naturaliste يرد "القرابة" إلى نوع من المورفولوجيا (علم دراسة شكل الكائنات) والفسيولوجيا الوصفية، بدلاً من الارتقاء بها إلى نظرية الاتصال La théorie de la communication.

وقد أصر رادكليف براون ومالينوسكي على أن الروابط البيولوجية هي مصدر وأنموذج لكل نظم الروابط العائلية[2] وحيث أن الوظيفيين يخلطون بين البناء الاجتماعي وبين العلاقات الاجتماعية، لذا فإن أبحاثهم لا تخرج عن التجريبية Empirisme.

ولما كانوا يقتصرون على المعاش le vécu ويستبعدون اللاشعور، فإنهم لذلك يظلون على السطح. أما ليفي ستروس فإنه سيثبت أن الحقيقة الاجتماعية أبعد من ذلك.

وبعد هذا النقد الذي أثبت عدم قدرة هذين الاتجاهين الكلاسيكيين في العثور على حل للمشكلة الاثنولوجية يجدر بنا أن نشير إلى ما كان عليه الوضع بالنسبة لهذه المشكلة داخل فرنسا.

---

(1) LEVI-STRAUSS Claude, "Anthropologie Structurale", p. 17.
(2) Ibid. p. 334.

كانت المشكلة كما يحددها ميرلوبونتي[1] تتلخص في أن المدرسة الفرنسية بعد دوركيم وليفي بريل كان ينقصها العبور إلى الآخرين l'accès a l'autre رغم أن هذا هو نفسه تعريف الأنثروبولوجية. فالأنثروبولوجيا الاجتماعية على يد دوركايم كانت تهدف إلى دراسة الظواهر الاجتماعية "كأشياء". وهي في محاولاتها للتحديد اختلط الجانب الاجتماعي بالجانب النفسي. وهنا يصعب التسليم بأن يكون الوجدان affectivité مبدأ للتفسير وهو الجانب الأكثر غموضًا في الإنسان، أي هو نفسه يستعصي على التفسير[2]. أما ليفي بريل فقد كان مفهوم العقلية "قبل منطقية" عنده يعني وضع الشعوب البدائية في موقف جامد من الصعب تخطيه.

وعلى ذلك فقد كانت الأنثروبولوجيا تطابق بين أفكارنا وبين الواقع أو أنها ترى في هذا الواقع حاجزًا لا يمكن اجتيازه – وبدأ الأنثروبولوجي وكأنه يحوم حول الموضوع كملاحظ من الدرجة الأولى رغم أن هذا العلم كان ينقصه التوغل في الموضوع والاتصال به. وكان السؤال الملح الذي يفرض نفسه في هذا الصدد هو: كيف نفهم الآخرين دون أن يقعوا فريسة لمفاهيمنا ودون أن يكون ذلك على حساب منطقنا نحن؟[3].

إن مارسيل موس[4] يعتبر بحق أول من اتصل بالموضوع وتوغل فيه، فتحولت الظاهرة الاجتماعية عنده من مجرد واقع مادي إلى نسق من الرموز أو شبكة من القيم الرمزية التي ترتد إلى الأعماق السحيقة للإنسان والتي

---

(1) MERLEAU - PONTY Maurice: Eloge de la philosophie (Idées, Gallimard, 1965), p. 147.
(2) PIAGET Jean, Structuralisme, "Que sais-je?" p. 94.
(3) MERLEAU-PONTY Maurice, op. cit., p. 147.
(4) عالم اجتماع وأنثروبولوجيا، فرنسي (1872– 1950).

بفضلها كان احترام موس للفرد وللمجتمع ولتعدد الثقافات دون حواجز تفصل الواحدة عن الأخرى[1]. ولذا فقد كان "مقاله عن الهدية" "Essai sur le Don" هو بمثابة "القانون الجديد للقرن العشرين"[2]، كما كانت أبحاثه هي التمهيد الحقيقي لجسارة ليفي ستروس الذي سوف يفتح طريقا جديدا للأنثروبولوجيا الحديثة تحت اسم الأنثربولوجيا البنائية، مستعينا في ذلك بعلومه الأثيرية الثلاثة[3] وسائرا على نهج علم اللغة كأنموذج علمي.

ليفي ستروس والعلوم الأثيرة الثلاثة:

ولد ليفي ستروس سنة 1908 في بلجيكا وكان والده رساماً. درس في كلية الحقوق بجامعة باريس وحصل على ليسانس في الفلسفة. اشتغل بالتدريس من سنة 1922 إلى سنة 1934؛ وفي سنة 1934 عين أستاذا لعلم الاجتماع بجامعة ساوبولو بالبرازيل ومكث بها حتى سنة 1937. وقام بدراسة ميدانية في داخل البرازيل لم تتعد ثلاثة أشهر[4]. وظهرت باكورة كتاباته عام 1936 بمقال من خمس وأربعين صفحة عن التنظيم الاجتماعي لهنود بورورو Bororo. ومن سنة 1938 إلى سنة 1939 تنازل عن منصبه في جامعة ساوبولو وحصل على منحة من الحكومة الفرنسية لمواصلة دراساته الميدانية داخل البرازيل. في سنة 1939 وسنة 1940 يؤدي الخدمة العسكرية في فرنسا. في سنة 1941 يحتل منصبا في مدرسة البحوث الاجتماعية بنيويورك. ومن سنة 1946 إلى سنة 1948 عين مديرًا لمعمل الأنثروبولوجيا الاجتماعية بجامعة باريس. ومنذ سنة 1959

---

(1) MERLEAU-PONTY Maurice, op. cit., p. 147-148.

(2) Novum Organum- "Intrduction de l'oeuvre de Mauss", op. cit., p. XXXVII.

(3) الماركسية والجيولوجيا والتحليل النفسي.

(4) LEACH Edmund, "Levi-Strauss", (Les Maitres Modernes, SECHERS), Paris, 1970), p. 15.

يحتل ليفي ستروس كرسي الأنثروبولوجيا الاجتماعية بكلية فرنسا Collége de France. وفي سنة 1968 حصل ليفي ستروس على الميدالية الذهبية من المركز القومي للبحث العلمي وهي أعلى ميدالية علمية في فرنسا. ولا ينبغي أن ننسى أن ليفي ستروس كان موسيقيا موهوبا.

وقد كان يحلو لليفي ستروس أن يتحدث في كتاباته عن "العلوم الأثيرية الثلاثة"، والإشارة هنا كانت إلى الجيولوجيا ونظرية التحليل النفسي والماركسية، وقد كان لهذه العلوم الفضل في الإيحاء لليفي ستروس بمبادئ هامة في المنهج، اعترف بها في كتاب "الآفاق الحزينة" "Tristes Tropiques".

الجيولوجيا:

ليس غريبا أن وضعت الجيولوجيا وهي من علوم الطبيعة إلى جانب التحليل النفسي والماركسية وهي علوم إنسانية. فإلى جانب تأثره بالجيولوجيا لأن فضوله قد دفعه إليها منذ الصغر[1]، نجد أنها بما تفرض من ضرورة البحث في أغوار الماضي السحيق للحفريات والصخور مع عدم الاقتصار على مجرد الملاحظة السطحية، قد أوحت لصاحب الأنثروبولوجيا البنائية بمبدأين أساسيين في المنهج:

(1) أن الملاحظة يجب أن ترتبط بتحليل عميق لحالة واحدة معطاة ومحددة. بعكس المنهج المقارن الذي يقوم على مضاعفة الملاحظة لكي تتسع القاعدة الاستقرائية التي ينطلق منها الإثنولوجي إلى القانون العام.

يقول ليفي ستروس[2] أنه في عام 1935 قام بجمع أربعمائة من الأشكال التي يرسمها نساء الـ Caduevo (وهم من هنود البرازيل) على

(1) LEVI-STRAUSS Claude, "Tristes Tropiques", Plon, 1955, P. 42.
(2) LEVI-STRAUSS Claude, "Anthropologie Structurale", p. 277.

أجسادهن ووجوههن، ولاحظ بعجب شديد أنه لا يوجد منها شكلان متشابهان، كما لاحظ أنه ليس من السهل ان نحلل "الديكور" بسبب عدم انسجامه الظاهر. غير أن عدم الانسجام هذا يخفي وراءه انسجاما واقعيا على الرغم من تعقده. ويضيف ليفي ستروس[1] أن قراءة هذه الأشكال والرسوم يمكن أن تفصح عن معنى لو أننا اكتشفنا المحور الذي يدور حوله هذا الانسجام الواقعي، وعندئذ فإن نفس الأنموذج المفسر يطبق على الحالات المتعددة.

(2) من خصائص الجيولوجيا التي بهرت بها ليفي ستروس وأثرت بعمق في تصوره للتاريخ هو أن البحث الجيولوجي في أغوار الماضي السحيق للصخور والحفريات والذي يمتد إلى أزمنة وعصور جيولوجية سحيقة تتضاءل أمامه فكرة الزمن على مستوى حياة الإنسان.

يقول ليفي ستروس: "إن التعدد الحي للحظة يقرب ويخلد العصور".

La diversité vivante de l'instant juxtapose et perpétue les ages.

فالمتأمل لصخور يرجع تكوينها لحقبة زمنية معينة وإلى جوارها بعض الحفريات التي تشير إلى فترات زمنية أخرى وأيضًا بعض النباتات المختلفة التي اختار كل منها نوع الصخرة التي ينمو عليها، إن المتأمل لكل هذا في نفس الوقت يعيش في آن واحد كل العصور، أو أن الآنية في هذه الحالة تشمل وتحتوي تمايز الحقب التاريخية La synchronie envelope la diachronie أو قل يختلط الزمان بالمكان L'espace et le lemps se confondent"[2]. ويغتبط ليفي ستروس لهذا الجانب الاستاتيكي للجيولوجيا حيث الأحداث وقد ثبتها المكان الذي يستوعبها في داخله،

(1) Ibid., p. 277.
(2) LEVI-STRAUSS Claude, "Tristes Tropiques", Plon, 1955, p. 43.

يصنفها، ويضع لها الترتيب الذي يمكن من قراءتها آنيا. L'espace range les événements en un ordre lisible synchroniquement.

وبهذا الصدد يصرح ليفي ستروس:

"أشعر بأني مغمور بمعقولية كثيفة، حيث تتجاوب وتتصافح الأزمنة والأمكنة"[1]. وقد انعكس هذا في مجال البحث الاثنولوجي، فقد عرف عن ليفي ستروس أن "إحساسه بالزمن هو إحساس جيولوجي" "Le sentiment du temps chez Lévi-Strauss est géologique".

"فالزمن سلسلة حلقاتها البشر، تعبر القرون، وهي بهذا لا تمثل سوى إنسان واحد لا يتقدم أبدا"[2]. وكان الهدف من هذا التصور هو دحض آراء أصحاب المذاهب التاريخية والتطورية، فكما أن الطبيعة لا تحتوي على صخور أقل مرتبة من أخرى لأنها متغلغلة في القدم، كذلك لا يمكن تصور عقلية "سابقة على المنطق" أو "قبل تاريخية" في مرتبة أدنى. "فتفكير الفطرة" يقدم نسقا يحقق الانسجام بين الآنية وبين تتابع الزمن، كما أن ليفي ستروس يذكر دائما بأن "بناءات التفكير البدائي تظل حاضرة في أفكارنا الحديثة بنفس الدرجة التي توجد بها في أفكار أولئك الذين ينتمون إلى مجتمعات بدون تاريخ"[3].

وفي البحث عن معقولية أكيدة، بعيدة عن عرض الزمن، ومنزهة عن أي تدخل للذاتية، اكتشف ليفي ستروس ضالته في عمله الأثيري الثاني: نظرية التحليل النفسي.

---

(1) Ibid., p. 43.
(2) DOMENACH Jean-Marie, "Le requiem structuraliste", in Esprit, Mars 1973, p. 693.
(3) LEACH Edmund, "Levi-Strauss", P. 22.

نظرية التحليل النفسي:

إن أهم ما تعلمه ليفي ستروس من نظرية التحليل النفسي هو إدخال اللاشعور الذي هو بمثابة حجر الزاوية في أبحاثه. والحقيقة أن اللاشعور في تحوله إلى الأنثروبولوجيا يفقد لونه الفرويدي (إذ لا علاقة له بدوافع غريزية)، ويصبح كنطيًا كما يلاحظ ريكير Paul Ricoeur[1]. كما تعلم ليفي ستروس كذلك من نظريات التحليل النفسي أن التقابل بين المعقول واللامعقول Rationnel et irrationnel بين العقلي والوجداني Intellectuel et affectif بين المنطقي والسابق على المنطق logique et Prélogique، نقول أنه تعلم أن التقابل بين هذه الألفاظ وأمثالها لم يعد له نفس المعنى. وقد كشفت له أبحاث فرويد عن أن تلك المتضادات oppositions ليست في الحقيقة كذلك. فالعمليات التي يظن أنها الأكثر بعدًا عن العقل، والسلوك الذي يظهر وكأنه نشأ عن الهوى، والظواهر "اللامنطقية"، هي نفسها الأكثر مغزى. وهكذا يكتشف ليفي ستروس في قلب المعقول ذاته au sein du rationnel مقولة أخرى أكثر أهمية وأكثر خصوبة هي مقولة المغزى catégorie du signifiant. يقول عنها أنها "أعلى مراتب المعقول رغم أن أساتذتنا لا يكادون ينطقون منها الاسم".

كما يكتشف أن التقابل التقليدي بين المعقول واللامعقول rationnel & irrationnel لا معنى له. ذلك لأن العمليات التي تظهر وكأنها أقل معقولية هي في الحقيقة الأكثر مغزى les plus signifiantes أي أن ليفي ستروس اكتشف ما هو أكثر معقولية داخل اللامعقول ذاته[2].

---

(1) RICOEUR Paul, "Structure et herméneutique", in Esprit, Nov. 1963, P.600.

(2) LEVI-STRAUSS Claude, "Tristes Tropiques", P. 59.

الماركسية:

تعلم ليفي ستروس من أثيرته الثالثة "الماركسية" أن يقرأ الواقع reel ابتداء من مستوى مذهبي يرفض الشعور. "فالشعور هو العدو المستتر لعلوم الإنسان"[1]. أما الواقع المسموح بدراسته هنا فهو واقع تخلص من شوائب المحسوس، وتحول إلى موضوع للعلم. لذا فإن تركيب النماذج يصبح هو البحث الأساسي للاثنولوجي.

ويرى ليفي ستروس أن الماركسية قد انتهجت نفس طريق الجيولوجيا ونظرية التحليل النفسي. "فقد اتفق الثلاثة على أن الفهم هو عبارة عن رد حقيقة إلى أخرى، كما أنها تتفق جميعا على أن الواقع الحقيقي ليس أبدا الأكثر ظهورا، وأن الحقيقي يختبئ بطبيعته". وفي جميع الحالات كانت المشكلة التي تفرض نفسها واحدة، وهي في العلاقة بين المحسوس والمعقول، كما كان الهدف واحد هو خلق نوع من العقلانية الفوقية Une sorte de super-rationalisme تجعل الحسي يتواءم مع العقلي دون أن يضحي بخصائصه"[2]. إن هذا النص له أهمية خاصة، إنه يبشر بمنهج ليفي ستروس كله، فكل كلمة فيه لها وزنها الخاص، ونحن هنا في قلب المنهج البنائي.

علم اللغة La Linguistique

إن من يستعرض السياق الذي انبثقت عنه جرأة ليفي ستروس، وما قدمته الجيولوجيا والماركسية والتحليل النفسي للمنهج البنائي وما أوحت به من مبادئ منهجية، عليه أيضًا أن يشير إلى فضل علم اللغة في هذا

---

(1) "L' ennemie secrète des sciences de l'homme" Voir: Levi-Strauss in: "Critères scientifique dans les disciplines sociales et humaines" in Aletheia no. du 4 Mai 1966, P. 194.

(2) LEVI-STRAUSS, "Tristes Tropiques", p. 62.

المجال خصوصا وأن ليفي ستروس كان تلميذا لمدرسة براج في علم اللغة البنائي. وقد تكرر ذكر أسماء جاكوبسون Jakobson وتروبتسكوي Troubetskoy – وهما من أقطاب هذه المدرسة – في مؤلفه "الأنثروبولوجيا البنائية". كما كان ليفي ستروس زميلا لـ تروبتسكوي Troubetskoy بمدرسة البحوث الاجتماعية بنيويورك قبيل نهاية الحرب العالمية الثانية.

وبوجه عام يمكن القول بأن العلوم الإنسانية، في صورتها الحالية، مدينة يفضل تجددها لعلم اللغة العام Linguistique générale، ذلك العلم الذي تصدى في مطلع هذا القرن لعلم اللغة التاريخي La Linguistique historique لأن هذا الأخير لم يبحث عن ماهية اللغة كعامل رئيسي في الاتصال Communication، واكتفى بالبحث عن أصل اللغات وتطورها ومقارنتها ببعضها[1].

وترجع أهمية علم اللغة البنائي إلى أن جميع الأبحاث الخاصة بتنظيم الجماعات الإنسانية قد تصدت للغة كحقيقة أساسية. ذلك أنه إذا صح أن كل مجتمع يمارس بداخله علاقات تبادل échange، فإن تبادل الإشارات اللغوية هو أكثر هذه العلاقات عمومية، حتى أن ماعداها من علاقات التبادل مثل تبادل المتاع والتبادل الاقتصادي وتبادل النساء، جميعها لابد أن تترجم مباشرة أو بطريق غير مباشر إلى تبادل لغوي. ولذا كان هذا الأخير بمثابة المدخل المفضل لكل دراسة اجتماعية[2].

وقد حقق علم اللغة تقدما كبيرا بالنسبة لسائر العلوم الاجتماعية لأنه الوحيد الذي استطاع أن يكون لنفسه منهجا وضعيا مكنه من الوصول إلى طبيعة الظواهر الموضوعة للبحث. وهو باستخلاص اللغة La

(1) Grand Larousse Encyclopédique, "Supplément" de A a Z, 1968, p. 814.
(2) Ibid., p. 814.

Langue من الكلام La parole استطاع أن يعطي لنفسه موضوعا للدراسة الداخلية étude internc، وهي دراسة لا تهتم إلا بعلاقات الإشارات اللغوية rapports des Signes في نسق لا يهتم إلا بتنظيمه الخاص به. ويمكننا أن نصف هذه الدراسة بأنها دراسة حالة أو باطنة للموضوع etude immanente de l'objet. وقد انبهر ليفي ستروس من قول أحد علماء اللغة هو دي سوسير Ferdinand de Saussure : "رغم أن وجود الأشياء يسبق فكرتنا عنها، إلا أنه يمكن القول بأن تصوراتنا هي التي تخلق الأشياء"[1] وهذا القول الافتراضي لدى سوسير Saussure يصبح قاطعا وملزما لدى ليفي ستروس حيث يقول: "إن تفسير الظواهر يبدأ فقط عندما نتوصل إلى تركيب الموضوع Constituer l'objet"[2] ونحن نجد تلخيصا لمنهج علم اللغة كما يفهمه Troubetskoy في مقال كتبه ليفي ستروس سنة 1945 بعنوان "التحليل البنائي في علم اللغة والانثروبولوجيا" ظهر في مجلة World ونشر بعد ذلك في كتاب "الانثروبولوجيا البنائية" تحت عنوان "اللغة والقرابة" ونحن نرى أنه من الضروري أن نتعرض لهذا التلخيص لمنهج علم اللغة، لا لأنه يشير فقط إلى منهج مطابق لمنهج الانثروبولوجيا البنائية بل لأن فيه تبريرًا لاستخدام اصطلاحات علم اللغة في الانثروبولوجيا البنائية كما سيأتي بيانه في الفصل القادم.

يرى Troubeets skoy أن منهج علم اللغة يقوم على الأسس الآتية:

(1) موضوع علم اللغة هو الانتقال من دراسة الظواهر اللغوية الشعورية إلى (بنائها التحتي) اللاشعوري. وينص منهج علم اللغة على أن الإشارة اللغوية le signe linguistique ليست وسيطا محايدا بين الشيء والتعبير

(1) F. de Saussure : Cours de linguistique general, p. 23. (Voir Millet, Structuralisme, p. 53).
(2) LEVI-STRAUSS, "La Pensée Sauvage", Plon, 1962, p. 331.

عنه، بل إنها تنشئ علاقة بين مدلول Signifié (هو ما يريده المتحدث أو الرسالة المراد تبليغها) وبين دال Signifiant (هو الوسيلة الصوتية الشفهية أو المحررة كتابة والتي يجب أن يمتلكها نفس هذا المتحدث لكي يكون مفهوما لمستمعيه). وبعبارة أخرى فإن موضوع علم اللغة هو نسق الرموز système de Signes الذي ينشأ عن حتمية الاتصال بين فئتي الدال والمدلول على اعتبار أن فئة الدال تكون صوتية sonore أما فئة المدلول فهي تكون تصورية conceptual[1].

(2) يرفض منهج علم اللغة اعتبار الألفاظ termes كوحدات مستقلة entités indépendantes، ويجعل التحليل قاصرا على العلاقات بين هذه الألفاظ. فتعريف اللفظ في علم اللغة لا يكون بنسبته إلى مدلول، وإنما يكون بعلاقته بألفاظ أخرى من نفس اللغة. (وسنرى في الفصل القادم أن الأنثروبولوجيا البنائية كذلك لا تفسر الظاهرة إلا بعلاقتها بالكل الذي يحتويها). والتفسير هنا يكون تفسيرا فارقًا. La signification est différentielle أي بتمييز اللفظ أو الظاهرة بعلاقته بألفاظ أخرى أو ظواهر أخرى داخل النسق[2].

(3) اللغة هي نسق لابد أن تمر من خلاله كل الرسائل التي يريد المتحدث أن يوصلها إلى الآخرين، وبالتالي فإن كل الرسائل التي تمر من خلاله ينبغي أن تتبع قوانين هذا النسق.

(4) إن هدف علم اللغة هو البحث عن هذه القوانين العامة وتعريفها حتى يصل إلى الخصائص العامة للغة بطريقة استنباطية.

---

(1) LACROIX Jean: "Panorama de la Philosophie Francaise oontermporaine", (P.U.F. 1966), P. 216.

(2) Ibid., p. 216.

وكان ليفي ستروس يعتقد أن "الأنثروبولوجيا بتآذرها مع علم اللغة يمكنها أن تشترك معه في علم واسع للاتصال Communication"[1] ومعنى هذا أنهما لا يشتركان فقط في نفس المنهج بل ونفس الموضوع أيضًا "فإذا كان منع الاتصال بالمحارم والزواج الخارجي يتميزان بأن لهما وظيفة واحدة هي خلق رابطة اتصال بين البشر والارتقاء به إلى تنظيم اجتماعي بدلاً من مجرد تنظيم بيولوجي في حالة عدم وجود رابطة الاتصال هذه، فينبغي الاعتراف بأن علماء اللغة والاجتماعيين لا يطبقون فقط نفس المنهج بل إنهم يدرسون نفس الموضوع ... لأن الزواج الخارجي واللغة لهما نفس الوظيفة الأساسية وهي الاتصال بالآخرين والتكامل الاجتماعي"[2].

غير أننا "عندما ننتقل من الزواج إلى اللغة فإننا ننتقل من اتصال بطيء إلى اتصال سريع. والاختلاف هنا سهل التفسير: ففي الزواج نجد أن موضوع الاتصال وأدائه هما من نفس الطبيعة (النساء والرجال)، أما في اللغة فالفرق ظاهر بين الشخص المتحدث وبين الكلمات"[3].

وقد يفهم مما تقدم أن قواعد الزواج وأنساق القرابة تعد لغة، على اعتبار أنها مجموعة من العمليات تهدف إلى ضمان نوع من الاتصال بين الأفراد وبين الجماعات[4]، غير أن ليفي ستروس لا يرد الحياة الاجتماعية إلى اللغة، وإنما يردها إلى شروط التفكير الرمزي. أما "أساس التفكير الرمزي فهو البناء اللاشعوري للنفس الإنسانية"[5]، ويلاحظ أن "ظهور التفكير الرمزي هو الذي يجعل الحياة الاجتماعية ممكنة وضرورية"[1].

---

(1) LEVI-STRAUSS: "Introduction de 1, oeuvre de Mauss", P. LI.
(2) LEVI-STRAUSS: "Les Structures èlèmentaircs de la parentè" (P.U.F., 1949), P. 565.
(3) LEVI-STRAUSS: "Anthropologie structurale", p. 327.
(4) Ibid., p. 69.
(5) LEVI-STRAUSS: "Introduction a l'oeuvre de Mauss", P. XXVII.
(1) Ibid., P. XXVII.

مما تقدم في هذا الفصل يتضح لنا أن ليفي ستروس بعد أن أثبت قصور المناهج التقليدية في معالجة المسائل الأنثروبولوجية، فإن جرأته تتلخص في تطبيق منهج علم اللغة على دراسة الموضوعات الأنثروبولوجية وسنبين في الفصل القادم كيف استفاد ليفي ستروس من المنهج مع الاحتفاظ بأصالته التي جعلت البعض يرى فيه الحجة الأولى في الأنثروبولوجيا خارج العالم الناطق الإنجليزية.

□